المحاضرة الثانية

المفاهيم القاعدية في علم النفس المرضي

1. مفهوم البنية:

من أجل تحديد وفهم أعمق للإعراضية النفسية وحقل الباتولوجيا في علم النفس، كان لا بد على المهتمين والمتخصصين في حقل علم النفس بشكل عام وعلم النفس المرضي بشكل خاص التعمق في العديد من المفاهيم القاعدية التي تشكل البناء المحوري لعلم النفس المرضي، حيث يحتل مفهوم البنية لب هذا العلم وما يتبعه من مفاهيم قاعدية كالنزوة والقلق والصراع وأليات الدفاع أو ميكانيزماته، حيث يرى بارجوري ان الإدراك النوعي لهذه المفاهيم يشكل الأساس العلمي لفهم الصحة والمرض وطرقة تعبير الأفراد عن المشكلات التي يعايشونها وذلك من خلال الأعراض.

أ. المفهوم اللغوي للبنية:

جاءت كلمة البنية من البناء في اللغة العربية والتي يقصد بها التركيب الخاص بالكائنات أو الأجسام، حيث أن نوع التركيب هو ما يعطي للبنية نوعها، كما ويقصد بها ترتيب الأجزاء الداخلية للأشياء وتنظيمها وذلك في إطار الكل المعقد().

ب. المفهوم الإصطلاحي للبنية:

البنية هي ذلك الكل أو المجموع الذي لا يتجزأ، والذي يدرك في شكله الكلي من طرف الأفراد بحيث لا يكون للجزء معنى إلا إذا أخذ في إطار كليته.

ج. مفهوم البنية في علم النفس المرضي:

هي ذلك التنظيم الثابت والكلي والنهائي لمجموع عناصر ميتا سيكولوجية أساسية سواءا أكانت الحالة مرضية أو سوية(). وهي مجموعة الصفات الوراثية الثابتة عند الفرد الجسمية منها والفسيولوجية والعقلية.

في كتابه المحاضرات الجديدة يتحدث سيجموند فرويد عن البنية موضحا ذلك ب" إذا تركنا كتلة معدنية على شكل بلوري تسقط على الأرض فإنها سوف تنكسر، حيث أن تلك الإنكسارات سوف تكون بشكل خطوط إنشطار لها حدود واتجاهات ومسارات قد لا تبدو لنا من الخارج لكنها محددة داخليا بشكل غير قابل للمحو، وذلك ما يطبق على البنية النفسية التي شيئا فشيئا وانطلاقا من الميلاد أو ما قبله من مراحل

وتبعا للعوامل الوراثية ونمط العلاقة مع الوالدين خلال الأشهر والسنوات الأولى من النمو وما يعايشه الطفل من مشكلات وإحباطات وصراعات وحرمانات وصدمات مختلفة وطبيعة الدفاعات المنظمة من قبل الأنا لمقاومة نزوات الهو والعالم الخارجي، يتبلور البناء النفسي للفرد بشكل تدريجي وينتظم، تماما كنا تتبلور المركبات الكيميائية المعقدة بحيث تشكل كل تلك المشكلات والإحباطات والصراعات والحرمانات والصدمات، تشكل مثل البلور المعدني خطوط انقسام أصلية غير قابلة للزوال توصلنا للبنية النفسية الحقيقية الثابتة والممثلة في البنيتين العصابية والذهانية، حيث أنه عندما يسلم الفرد الحامل لهذه البنية من التعرض للألام والمعاناة الداخلية والخارجية، و إلى صدمات عاطفية وإحباطات وحرمانات بمختلف أشكالها وعدم تعرضه لصراعات عنيفة لن يصبح مريضا ويبق البلور على حاله، ولكن في حالة العكس وحين التعرض لكل تلك الإرهاصات وإذا ما انكسر البلور فإن الإنكسار لن يحدث إلا حسب خطوط التقطع والإنشطار المعلمة سابقا ومنذ سن صغير جدا.

الشخص ذو البنية العصابية لن يصاب سوى بالعصابات، كما أن الشخص ذو البنية الذهانية لن يصاب سوى بالذهانات، وحين الإستفادة من العلاجات النفسية على اختلاف توجهاتها فإن الشخص العصابي يستجيب للعلاج ويتحسن لكنه يبقى دائما في حالة بنية عصابية جديدة ومعدلة ومعوضة، بينما الشخص الذهاني يصبح في حالة بنية ذهانية جديدة معدلة ومحسنة(Bergeret.1982). وقد أشار فرويد إلى البنية من خلال ظهور الإضطراب النفسي تبعا للتصدعات وفقا لما سبق.

د. مراحل تكوين البنية في علم النفس المرضي:

قسم بارجوري (Bergeret.1982) تكوين البنية في علم النفس المرضي إلى مراحل تناولها العديد من الباحثين في ذات المجال حيث تضمنت ما يلي:

المرحلة الأولى: تبدأ منذ الولادة حيث يكون النا في حالة لاتمايز نفسي جسدي، وتدريجيا يبدأ في التمايز مع خروجه من الهو، تحت تأثير عوامل النضج والرعاية والعلاقة مع الأم، وتجدر الإشارة أنه إذا كانت الظروف الداخلية والخارجية مضطربة، فسيمكن ذلك من تسجيل خطوط للضعف في هذه الفترة والتي تسمى بنقاط التثبيت وذلك حسب فرويد.

المرحلة الثانية: يتطور الليبيدو في هذه المرحلة ويتقدم في سيرورته وتتطور العلاقات بالموضوع، كما ينمو الأنا ويتطور ويستعين بالأليات الدفاعية مواجهة لتهديدات المحيط الخارجي، إضافة للأخطار الداخلية

الناجمة عن النزوات مما يسمح بتكوين تدريجي للشخصية، حيث أنه في هذه المرحلة يتطور الليبيدو ويتقدم تبعا للعناصر التالية:

- العلاقات مع الوالدين، وبشكل خاص العلاقة مع الأم تليها العلاقات مع الأفراد المحيطين.
- تسقط كل التجارب النفسية على شكل صراعات وصدمات وتقمصات إيجابية.
- تبدأ ميكانيزمات الدفاع في الإنتظام بشكل تفاعلي.
- تنتظم نفسية الفرد بشكل تدريجي وتصنف حسب العناصر الأولية فتكون منظمة داخليا على شكل خطوط انشطار والتي تكون غير قابلة للتغيير فيما بعد.

المرحلة الثالثة: مع نهاية مرحلة البلوغ تكون البنية ثابتة بحيث لا يمكنها التغير في توجهها الأساسي، ومادام صاحبها لم يتعرض لصدمات نفسية هامة (إحباطات هامة، صراعات قوية، ..أن يحدث ....الخ)، يبقى الفرد ذا بنية عصابية أو ذهانية سوية، كما ويمكن لأي حدث ان يحدث شرخا أو تشققا في البنية ولن يكون ذلك إلا حسب خطوط القوة والضعف الموجودة فيها().

فالبنية أما البنية الذهانية فيقتصر ثباتها على سيطرة الإنكار على جزء من الواقع مع سيطرة الدفاعات بالقديمة، كما توجد ما بين هتين البنيتين ما يعرف بالتنظيمات الحدية أو البينية حيث تظم الأمراض السيكوسوماتية ، السيكوباتية والإنحرافات.

هـ. مكونات بنية الشخصية في علم النفس المرضي:

تتكون البنية في إطارها النفسي من مجموعة عناصر عميقة ومتعددة وأساسية للشخصية بحيث تكون ذات تكوين ثابت، بحيث تتحدد من خلالها المكونات الميتاسيكولوجية الأساسية في الخمسة أبعاد الرئيسية التالية:

- **مستوى نكوص الليبيدو والأنا(التبلور):**

في البنية الذهانية: لا يتعدى النكوص المرحلة الشرجية الاولى، كما ينكص الأنا إلى مرحلة اللاتمايز، أو تمايز بدائي مما يجعله ضعيفا، غير قادر على لعب دور الوساطة فيقع مباشرة تحت سيطرة الهو.

في البنية العصابية: يرجع نكوص الليبيدو إلى الفترة الثانية من المرحلة الشرجية، وإلى المرحلة الأوديبية أو القضيبية، فالأنا تمايز كلية مع تمايز الموضوع.

في التنظيم الحدي أو البيني: يرجع النكوص أو التثبيت إلى المرحلة ما بين الشرجية الأولى والثانية، فالأنا تمايز لكن مازال إتكاليا، وهنا تلعب الصدمة دورها من حيث تهديدها للكيان النرجسي مما يؤدي إلى تبعية اتكالية للموضوع.

- **نوع القلق:**

في البنية الذهانية: قلق التجزئة والتفكك والتلاشي واليأس والموت فالأنا تفكك وانشطر بعدما كانت وحدة النا متماسكة.

في البنية العصابية: مهما كان نوع العصابات فإن القلق المسيطر على هذه البنية هو قلق الخصاء، أو ما يسمى بقلق الإثم والخطأ الذي يعاش في الحاضر وهو مركز على ماض شهواني.

في التنظيم الحدي أو البيني: يتعلق المر بقلق ضياع أو إنهيار الموضوع(الأم).

- **العلاقة بالموضوع:**

في البنية الذهانية: العلاقة نرجسية كاملة، لأنها مدمجة في نرجسية الأم ، مما يؤدي للإنطواء والتوحد والتخللي عن الموضوع وتوظيف الواقع مع تكوين واقع جديد من خلال الهذيانات والهلاوس، فالعلاقة أحادية فالطفل يعتقد أنه وأمه شخص واحد.

في البنية العصابية: العلاقة ثلاثية تناسلسة (طفل- أم – أب).

في التنظيم الحدي أو البيني: علاقة ثنائية اتكالية(طفل –أم)، وليست علاقة اندماجية.

- **طبيعة الصراع:**

في البنية الذهانية: يكون الصراع بين الهو والواقع، ولا يكون بين الأنا والواقع لأن أنا الشخص الدهاني عير موجود أو يأخذ طابعا بدائيا، ولا يقوى على لعب دور الوساطة بين الواقع والهو الذي يرفض سيطرته.

في البنية العصابية: يكون الصراع جنسي بين الأنا الأعلى والدوافع المعبرة عن الرغبات والنزوات الشيء الذي يؤدي للشعور بالذنب وقلق الخصاء.

في التنظيم الحدي أو البيني: يكون الصراع بين مثال الأنا والهو والذي لم يبلغ المستوى التناسلي ، فالأوديب لم يلعب دوره المنظم، ويبقى ذو طابع نرجسي مع قلق فقدان الموضوع والتهديد بالإنهيار().

- **الأليات الدفاعية الأساسية المستعملة في الحياة النفسية:**.

في البنية الذهانية: يستعمل الإنكار أو تجاهل الواقع كميكانيزمات دفاعية مع ازدواجية الأنا.

في البنية العصابية: أهم الميكانيزمات الدفاعية هي الكبت والتحويل.

في التنظيم الحدي أو البيني: إزدواجية الصور الهوامية، ، مع تقسيم الحقل العلائقي إلى جزأين :

. الأول: تقدير وفهم صحيح للواقع، ويعني ذلك تكيف صحيح.

-الثاني:تقدير مثالي للواقع وفي نفس الوقت نفي له.()

ولتوضيح أكثر لمختلف أنواع البنيات و خصائصها نستعرض الجدول التالي:

نوع البنية	الهيئة المسيطرة	طبيعة الصراع	الميكانيزمات الدفاعية	العلاقة مع الموضوع	مستوى نكوص الليبيدو	نوع القلق
البنية العصابية	الأنا الأعلى	الهو / الأنا الأعلى	- الكبت - العزل - التكوين العكسي	تناسلية	المرحلة القضيبية	قلق الخصاء مهما كان نوع الإضطراب
البنية الذهانية الشخصية	الهو	الهو / الواقع أنا الذهاني	- نفي الواقع - ازدواجية الأنا	اندماجية، تلاحمية يعتقد أنه وأمه شخص	المرحلة الفمية والشرجية	قلق التفكك والإنشطار لأن الأنا تفكك

الذهانية غير منظمة بعد		انشطر وتفكك		واحد	الأولى(التثبيت)	وانشطر بعدما كانت وحدة الأنا متماسكة

(Bergeret.2003)

- **البنية عند الطفل** :

عند الطفل لا نتكلم عن بنية عصابية أو ذهانية ، بل عن تنظيمات عصابية أو ذهانية قابلة للتغير تحت تأثير العوامل الداخلية و الخارجية ، لا تكتمل البنية إلا عند المراهقة لذلك يطرح التشخيص لاضطرابات الطفل و المراهق مشكلا معتبرا ، فإذا ظهرت عند الطفل أعراض ذات طابع عصابي فهي لا تعني بالضرورة وجود عصاب أو بنية عصابية لأن الطفل الذي أبدى هذه الأعراض يمكن أن يشفى خلال سيرورة نموه ، نظرا للإمكانيات التطورية الداخلية و الخارجية التي يملكها ، بالمقابل يمكن أن ينكص إذا ساءت الظروف الداخلية و الخارجية مطورا بذلك اضطرابات نفسية ، أما في المراهقة فيقول (بارجوري) أنه يمكن لتنظيم ذهاني أن ينقلب إلى تنظيم عصابي بفضل معالجة معمقة ، كما أن عددا كبيرا من الاضطرابات تأخذ طابعها النهائي كالفصام (الذي هو ذهان المراهقة و الشباب) ، يجدر القول أن مفهوم التنظيم في الطفولة و المراهقة يساعد على التبصر بخطورة الاضطرابات ، و أهمية التشخيص المبكر و العلاج كي لا ترسخ و لا تتعمق الاضطرابات. ()

إن دراسة كيفية تكوين البنية خلال مرحلة الطفولة ، و المشكلات التي تؤثر على عملية نموها أمر بالغ الأهمية ، لأنها تعطينا صورة واضحة عن خطوط الضعف و القوة التي تميز هذا النمو ، و بالتالي تنبؤنا بطبيعة ما قد يواجهه الطفل من اضطرابات في مراحل عمرية لاحقة ، و من ثم إمكانية التدخل مسبقا لتفادي تطور ما يبدو عليه من علامات وأعراض.